الأحرف السبعة

...

من العبارات الشائعة على ألسنة الدارسين للقراءات ومن هم بسبب منها: عبارة الأحرف السبعة، وعبارة القراءات السبع، ووقع شيء من الخلط واللبس على غير أهل التحقيق.

فما أصل العبارتين؟ وما العلاقة بينهما.

الأحرف السبعة:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله –ﷺ: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف" ١، زاد مسلم: قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة من الأمر الذي يكون واحدًا، لا يختلف في حلال، ولا حرام٢.

جمعه لذلك، وبلغ عدد رواته عنده نحو عشرين صحابيًّا منهم أبو بكر وعمر وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل.

كما نقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام قوله بتواتر هذا الحديث٣.

وأمام هذا النص نحاول أن نفهم أمرين:

أولهما: المقصود بالحرف.

الآخر: المقصود بالسبعة. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٤)

المقصود بالحرف:

حرف كل شيء طرقه، ووجهه، وحافته، وحده، وناحيته، والقطعة منه، والحرف أيضًا واحد من حروف التهجي كأنه قطعة من الكلمة، ويطلق على القراءة من القراءات التي يقرأ بها القرآن كقولهم. حرف أبي بن كعب، وحرف ابن مسعود، وقراءة كل إمام تسمى حرفًا١.

وفي بيان علم القراءات لمعنى الحرف لا يبتعدون عن المعنى اللغوي كثيرًا.

قال ابن الجزري نقلًا عن الحافظ أبي عمرو الداني: معنى الأحرف التي أشار إليها النبي –ﷺ– ههنا يتوجه إلى أمرين:

أحدهما: أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات؛ لأنمدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٥)

الأحروف جمع حرف في القليل كفلس وأفلس، والحرف قد يراد به الوجه بدليل قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} ١، فالمراد بالحرف هنا الوجه، أي على النعمة والخير، وإجابة السؤال والعافية، فإذا استقامت له هذه الأحوال اطمأن وعبد الله، وإذا تغيرت عليه وامتحنه بالشدة والضر ترك العبادة وكفر، فهذا عبد الله على وجه واحد، فلهذا سمى النبي -ﷺ- هذه الأوجه المختلفة من القراءات، والمتغايرة من اللغات أحرفًا على معنى أن كل شيء منها وجه.

والوجه الثاني من معناها: أن يكون سمى القراءات أحرفًا على طريق السعة كعادة العرب في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان كسبب منه، وتعلق به ضربًا من التعلق كتسميتهم الجملة باسم البعض منها، فذلك سمى ﷺ القراءة حرفًا، وإن كان كلامًا كثيرًا.

ثم يعقب ابن الجزري على كلام الداني بأن كلا الوجهين محتمل احتمالًا قويًّا، ثم يشير إلى قول عمر -رضي الله عنه: سمعت هشامًا يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ٢.

وهذا النص يؤيد الوجه الثاني. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٦)

أقوال العلماء في الأحرف السبعة:

المقصود بالسبعة:

اتفق العلماء على أنه لا يعني بالأحرف السبعة أن يكون الحرف الواحد مقروء على سبعة أوجه؛ لأن ذلك لا يوجد -كما قال ابن الجزري في النشر- إلا في كلمات يسيرة مثل: "أف، جبريل، أرجه، هيهات، هيت".

لكنهم اختلفوا في المقصود بالأحرف السبعة.

الرأي الأول:

هي سبع لغات من لغات العرب.

وذلك على وجهين:

أولهما: كما تختلف لغات العرب في تناول معنى من المعاني يأتي القرآن منزلًا بألفاظ وتعبيرات مختلفة على ضوء هذه اللغات، وقد روى هذا الفهم عن محمد بن السائب الكلبي وسليمان بن مهران الأسدي "الشهير بالأعمش".

والآخر: أن القرآن الكريم في جملته لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب هي أفصحها فأكثره بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل أو ثقيف أو هوازن١.

وقد أيد هذا الرأي أبو عبيد القاسم بن سلام بقوله: ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات، بل اللغات السبع مفرقة فيه، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن، وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيبًا"٢.

واختلف العلماء في تحديد اللغات السبع.

فقيل هي لغات قريش، وهذيل، وتميم، والأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر٣، وهذا قول أبي حاتم السجستاني. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٧)

وقال أبو عبيد: قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن١.

ويمكن أن يعترض على الرأي القائل بأنها اللغات السبع: باختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم في قراءة سورة الفرقان كما ثبت في الصحيح، وكلاهما قرشي، ولغتهما واحدة.

الرأي الثاني:

أنها سبعة من المعاني، أو الأحكام، أو طرائق التعبير التي جاءت في الكتاب العزيز.

والقائلون بهذا لهم عدة تفسيرات.

فمنهم من قال: هي، الحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال، والإنشاء، والإخبار.

ومنهم من قال: هي: الناسخ، والمنسوخ، والخاص، والعام، والمجمل والمبين، والمفسر.

ومنهم من قال: هي: الأمر، والنهي، والطلب، والدعاء، والخبر، والاستخبار، والزجر.

ومنهم من قال: هي: الوعد والوعيد، والمطلق والمقيد، والتفسير، والإعراب، والتأويل٢.

وقد يحتج لهذه الآراء بحديث ابن مسعود عن النبي -ﷺ- قال: كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: زجر وأمر ،مدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٨)

وحلال، وحرام ومحكم، ومتشابه، وأمثال١.

ويمكن أن نناقش هذا الرأي بما يأتي:

١- الصحابة الذين اختلفوا ورفعوا الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام مثل: عمر بن الخطاب، وهشام بن حكيم وأبي بن كعب، وابن مسعود، وعمرو بن العاص لم يختلفوا في تفسيره، ولا أحكامه، وإنما اختلفوا في قراءة حروفه٢.

٢- يبدو التكلف في عد الأبواب السبعة بحيث تفتقد التناسق، ووحدة الأساس الذي قامت عليه القسمة؛ إذ هي تخليط بين الأحكام الشرعية، وطرائق التعبير، وعلوم القرآن.

٣- من جهة الحديث الشريف.. نرى الأبواب المذكورة فيه غير الأحرف السبعة، على أن الحديث ذكر الأحرف والأبواب ثم فسر الأبواب، أو يكون ما ذكره من حلال وحرام "لا تعلق له بالسبعة الأحرف ولا بالسبعة الأبواب بل إخبار عن القرآن هو كذا وكذا، وجاءت الصفات السبع اتفاقًا٣.

الرأي الثالث:

العدد لا مفهوم له، ولا تراد به حقيقته، والعرب يطلقون لفظمدخل في علوم القراءات (ص: ١٣٩)

السبع، والسبعين، والسبعمائة، ولا يريدون حقيقته العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر، كما جاء في الآيات: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ} ، {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُم} ، وفي الأحاديث الشريفة: "الإيمان بضع وسبعون شعبة"، "إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة"١.

ويرى ابن الجزري أن الحديث بالصورة التي ورد بها يعني أن العدد بحقيقته مراد ومقصود؛ لأن وجوه اختلاف القراءات يمكن حصرها في سبعة كما سنشير في الرأي التالي٢.

ويفسر آخرون من علماء القراءات بأن التحديد بالسبعة بأن أصول قبائل العرب تنتهي إلى سبعة، أو أن اللغات الفصحى سبع.

الرأي الرابع:

ذهب إليه ابن الجزري٣: وهو أنها سبعة أوجه من الاختلاف لا تخرج عنها قراءة، على النحو التالي:

١- اختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى مثل: "يحسَِب" بفتح السين وكسرها.

٢- اختلاف في الحركات مع تغيير في المعنى دون الصورة مثل: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِمَاتٍ} ٤، بنصب الميمم من "آدم" أو رفعها، وفتح التاء من "كلمات" أو ضمها.

٣- أن يكون التغيير في الحروف مع التغيير في المعنى دونمدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٠)

الصورة مثل قوله تعالى١: {هُنَالِكَ تَبْلُو} ، قرئ: "تتلو".

٤- تغير في الحروف مع تغير في الصورة لا المعنى نحو: "الصراط، والسراط"، "وبصطة، وبسطة".

٥- تغير في الحرف والصورة والمعنى واحد وتختلف عن الصور السابقة بأن هذه حدث فيها تقديم وتأخير بين حروفها مثل: "يَأْتَل، ويَتَأَلَّ"٢، والسابقة استبدل فيها حرف بحرف.

٦- التغيير بالتقديم والتاخير. قرئ: {وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا} ٤، بالتقديم والتأخير، وقرئ: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَق} ٥، "وجاءت سكرة الحق بالموت".

٧- التغيير بالزيادة والنقصان نحو قوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوب} ٦، قرئ: "وأوصى".

الرأي الخامس:

ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي. ويرى فيه وجوه التغاير السبعة التي ترجع إليها القراءات غير الوجوه التي ذهب إليه ابن الجزري، وهي في مجملها أمور نحوية وتصريفية.

١- اختلاف الأسماء بالإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤١)

مثال: {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} قرئ: "لأمانتهم"١، بالإفراد.

٢- الاختلاف في التصريف كقوله تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} ، قرئ: "رَبُّنَا بَاعَد"، رب: "مبتدأ، بَاعَد: فعل ماض، كما قرئ: "بَعَّدَ" فعل ماض مضعف٢.

٣- الاختلاف بالإبدال سواء أكان إبدال حرف بحرف أم كلمة بكلمة.

مثال الأول: {نَنْشُزُهَا} ، قرئ: "ننشرها" بالراء مع فتح النون الأولى٣.

ومثال الثاني: {كَالعِهْنِ الْمَنْفُوش} قرأ ابن مسعود، وهي قراءة أحادية شاذة: "كالصوف المنفوش"٤.

٤- الاختلاف في التقديم والتأخير في الحروف مثل: {أَفَلَمْ يَيْأَس} قرئ: "يأيس"٥، وفي الكلمات مثل: {فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} ٦، قرئ: بالتقديم والتأخير.

٥- الاختلاف بالزيادة والنقص مثل قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} ٧، قرأ نافع وابن عامر، وأبو جعفر بدون الواو، والقراءتان صحيحتان. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٢)

- الاختلاف في وجوه الإعراب، مثل: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} ١، وقد أشرنا إلى القراءتين فيها وهي اختلاف الإعرابيين من الفاعل والمفعول به.

٧- اختلاف لغات العرب في التفخيم والترقيق، والهمز والتسهيل، والإظهار والإدغام ونحو ذلك.

هذا وقد اتجه مكي بن أبي طالب إلى رأي يكاد يجمع بين ما ذهب إليه الرازي وابن الجزري من وجوه التغاير السبعة ونسبه إلى ابن قتيبة "ت٢٧٦ هـ"، وابن شريح "٤٧٦هـ"، وأكبر الظن أن الرازي وابن الجزري أخذا رأييهما منه.

الرأي السادس:

ذهب إليه شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة المقدسي٢ المتوفى سنة: ٦٦٥.

يرى الأحرف السبعة هي الأصول السبعة المطردة في القراءات وهي:

١- وصل ميم الجمع وهاء الضمير وعدم ذلك.

٢- الإظهار الإدغام.

٣- والمد والقصر.

٤- وتحقيق الهمز وتسهيله.

٥- والإمالة وعدم الإمالة.

٦- والوقف بوجوهه المتنوعة: الإسكان، والروم، والإشمام. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٣)

- الياءات من حيث الفتح والإسكان والإثبات والحذف.

وهذا الرأي على جانب كبير من الوجاهة وحسن الفهم إلا أن المفروض أن كل القراءات تندرج تحتها لكنا نلاحظ أن هذا التفسير مقصور على الأصول المطردة في القراءات ولا يتناول "الفرش" وتحته قراءات كثيرة غير مطردة.

الرأي السابع:

أن الأحرف السبعة هي القراءات السبع.

وهو رأي بالغ الضعف لأمور:

١- القراءات كثيرة ومتعددة ولا حصر لها.

٢- الحديث منذ عصر النبوة وإطلاقه على القراءات غير سديد، كما أن فيه تحديدًا لمحتواه وإخلالًا بمضمونه العظيم الذي يبرز مدى التنوع التعبيري في أسلوب القرآن الكريم مع استبقاء سلامة المعنى واستقامته، وبعده عن التناقض، واحتفاظه بخصائص الفصاحة، وأعظم مقومات البلاغة.

٣- أن هذا رأي ناشئ عن لبس في الفهم أساسه ما شاع بين الأوائل من تسمية القراءة حرفًا. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٤)

رأي وتعليق:

بعد أن عرضنا لهذه الآراء التي حاول أصحابها تفسير الحديث الشريف، وبيان ما جاء فيه عن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم أستطع أن أقرر ما يأتي:

١- الرأي القائل بأنها القراءات السبع، نشأ عن وهم سرى إلى نفوس الكثيرين بعد أن قدم ابن مجاهد كتابه: "السبعة" وفيه قرر اختياره للسبعة القراء، أو القراءات السبع، ومن هنا لا تصلح تفسير سديد للحديث الشريف.

٢- رأي أبي شامة المقدسي بأن العدد لامفهوم له رأي قائم على نظر سديد، وخبرة بأساليب العرب، وهو رأي مقبول تمامًا؛ لأن أئمة القراءات ذكروا أن القراءات المقبولة كثيرة ومتعددة، وسياق الحديث؛ يعني أن العدد مقصود برغم ما قرره العلامة ابن الجزري في نقد هذا الرأي١.

٣- يمكن- بعد هذا- أن تكون الآراء الأخرى مجتمعة داخلة في مفهوم الحديث صالحة لتفسيره، فأصول القراءات داخلة في مفهوم الحروف السبعة، ووجوه الإعراب والتصريف كذلك، واختلاف لغات العرب لا شك أنه داخل في معنى هذه الحروف ليتأتى التيسير المراد وكذا اختلاف الأحكام الشرعية، وتنوع الأساليب.

ومن التكلف الوقوف عند رأي واحد منها على أنه الصحيح الأولى بالقبول.

كيف وجدت الأحرف السبعة في القرآن؟

على ضوء ما أسلفنا من وجوه قيلت في توجيه الأحرف السبعة وما انتهى إليه اختيارنا نريد أن نشير إلى أمرين: مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٥)

كيف وجدت الأحرف السبعة في القرآن؟:

على ضوء ما أسلفنا من وجوه قيلت في توجيه الأحرف السبعة وما انتهى إليه اختيارنا نريد أن نشير إلى أمرين:

أولهما: كيف وجدت الأحرف السبعة في القرآن؟

الآخر: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع هذه الأحرف.

وللإجابة عن السؤال الأول نقول على ضوء ما سبق.

إن الأحرف السبعة موزعة في القرآن الكريم، في قراءته الكثيرة، والمتعددة والتي نقلت إلينا نقلًا صحيحًا، متواترًا بأسانيدها المعتد بها، وموافقتها لوجوه قوية في العربية، وكذا لرسم المصاحف العثمانية.

وليس معنى هذا أنها منحصرة في قراءة أو رواية واحدة.

على أن وجهة نظر العلماء في هذا تختلف باختلاف رأيهم في معنى الأحرف السبعة.

وأما وجود الأحرف السبعة في المصاحف العثمانية، فقد اختلف رأي العلماء في ذلك على وجهين:

ذهب جماعة من القراء والفقهاء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، وحجتهم أن الأمة لا يصح أن تهمل شيئًا من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، كما أن المصاحف العثمانية نقلت عن المصاحف التي كتبها أبو بكر وعمر، وأمر بترك ما سواها فلا بد أن تكون جامعة لهذه الحروف؛ لأنه لا يصح النهي. عن القراءة ببعضها، كما أجمعوا على أنه لا يجوز ترك شيء من القرآن.

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي -ﷺ- على جبريل، متضمنة لها، لم تترك حرفًا منها١. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٦)

الحكمة في تعدد الحروف والقراءات:

وراء اختلاف الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، ووعتها قراءاته المتنوعة فوائد كثيرة، وحكم بالغة.

أولها: تيسير القراءة على القراء.

يقول مكي بن أبي طالب في شرح هذا الجانب: وكانت لغات من أنز عليهم القرآن مختلفة ولسان كل صاحب لغة لا يقدر على رده إلى لغة أخرى إلا بعد تكلف ومئونة شديدة، فيسر الله عليهم أن أنزل كتابه على سبع لغات متفرقات١ في القرآن بمعانٍ متفقة ومختلفة ليقرأ كل قوة على لغتهم على ما يسهل عليهم من لغة غيرهم،

وعلى ما جرت به عادتهم، فقوم جرت عادتهم بالهمز وقوم بالتخفيف، وقوم بالفتح، وقوة بالإمالة، وكذلك الإعراب واختلافه في لغتهم٢.

فاختلاف الأحرف -إذن- بهذه الصورة يسر على القارئين أسباب القراءة برغم اختلاف لغاتهم.

ثانيها: فيها برهان عظيم على سمو بلاغة القرآن، ومنزلته في الإيجاز؛ إذا يترتب على ذلك سعة الوعاء المعنوي للآية، فتحمل معاني عدة متآخية، كما تدعم أحكامًا متعددة تفهم من الآية.

ثالثها: سهولة الحفظ، وتيسير النقل؛ لأن حفظ كلمة ذات وجوه في الأداء أيسر من حفظ جمل من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات.

رابعها: في تعدد القراءات آية بالغة وبرهان قاطع على صدقمدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٧)

الرسول -ﷺ- وعظمة الآية القرآنية؛ إذ إنه برغم تعدد القراءات، وتنوع الأداء لم يتطرق إليه تناقض ولا تضاد، ولا تخالف بل يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد، وأسلوب واحد.

خامسها: فيه دلالة على عظمة هذه الأمة وشرفها التي تلقت هذا القرآن بحروفه المختلفة، ووعته هذا الوعي، وقامت بما ينبغي له من ضبط وإحكام، ودقة في الأداء، وتوفرت على وضع القواعد والأصول للعلوم التي من شأنها صيانة الكتاب العظيم ورعايته، مما يجعل أعلام هذه الأمة محلًا لفضل الله ومثوبته وتكريمه.

سادسها: في تعدد القراءات سند لقواعد مختلفة نحوية وتصريفية مثل قراءة حمزة لقوله تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ" بجر الأرحام، فاستشهد بها من قال بجواز العطف على المجرور دون إعادة الجار، ومنها قراءات تفسر معنى لغويًّا في قراءة أخرى مثل قراءة ابن مسعود: "وتكون الجبال كالصوف المنفوش" فإنها مفسرة للقراءة الأخرى، سادسها: ما يكون في حجة في قضية من قضايا العقيدة تأييدًا لأهل الحق، ودفعًا لأهل الزيغ وذلك كقراءة: "رأيت نعيمًا ومَلِكًا كبيرًا" بفتح الميم، وكسر اللام، وهي قراءة ابن كثير وغيره، وهي دليل واضح على رؤية الله في الدار الآخرة.

سابعها: تأثير اختلاف القراءات في الأحكام الفقهية.

اختلاف القراءات مجال خصب لآراء فقهية وتشريعية تدعم التشريع الإسلامي وتكسبه خصوبة ومرونة، وطواعية في مواجهة مشكلات الحياة المتعددة والمتجددة.

وذلك على النحو التالي: مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٨)

قد تأتي القراءة مبنية لحكم أجمع عليه الفقهاء كقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره: "وله أخ أو أخت من أم"؛ إذ إن العلماء أجمعوا على أن الأخ في الآية هو الأخ لأم.

وقد تأتي مرجحة لحكم مختلف فيه، كقراءة: "أو تحرير رقبة مؤمنة" في كفارة اليمين فكان في هذه القراءة ترجيح لما اشترطه الشافعي من الإيمان في العبد المقرر عتقه.

وقد تكون للجمع بين حكمين مختلفين كقراءة: "يَطْهُرْن" "وَيَطَّهران" بالتخفيف والتشديد ينبغي الجمع بينهما وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها، وتطهر بالاغتسال.

وقد تقدم القراءات أحكامًا شرعية متعددة كقراءة: "وأرجلكم" بالخفض والنصب، فإن الخفض يقتضي فرض المسح، والنصب يقتضي فرض الغسل، فبينهما النبي – ﷺ– فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره.

وقد تكون القراءة موضحة لحكم يقتضي الظاهر خلافه مثل: {فَاسْعَوا إِلَى ذِكْرِ الله} يقتضي ظاهرها المشي فجاءت قراءة: "فامضوا إلى ذكر الله" رافعة لهذا الوهم١.

القراءات واللهجات:

ثامنًا: تقدم قراءات القرآن لدارسها سجلًا عن اللغات المنتشرة عند العرب، واختلافاتها الصوتية وفي البنية والإعراب. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٤٩)

القراءات السبع، والقراء السبع:

كيف نشأت فكرة القراءات السبع؟:

القراءات كثيرة ومتعددة تتجاوز المئات، والقراء ورواتهم آلاف مؤلفة، وظهرت فكرة تحديد أئمة وقراءات تكون مرجعًا لأهل الأمصار، وقدوة لهم.

يقول مكي: إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيرًا في العدد، كثيرًا في الاختلاف فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من

القراءات التي توافق المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة وحسن الدين، وكمال العلم، قد طال عمره، واشتهر أمره، وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نقل، وثقته فيما قرأ وروى، وعلمه بما يقرأ فلم تخرج قراءته عن خط مصحفهم المنسوب إليهم، فأفردوا من كل مصر وجه إليه عثمان مصحفًا إمامًا هذه صفته وقراءته على مصحف ذلك المصر ١.

هكذا شرح مكي الأسس التي قام عليها فيما بعد اختيار ما عرف بالقراءات السبع والقراء السبعة.

وقد ألف ابن جبير المقري كتابًا في القراءات وسماه: كتاب الثمانية، ذكر فيه القراء السبعة المشهورين:

ابن عامر إمام أهل الشام.

أبو عمرو بن العلاء من البصرة.

وحمزة وعاصم والكسائي من الكوفة.

ونافع من المدينة.

وابن كثير من مكة. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٥٠)

وزاد عليهم يعقوب الحضرمي.

وكان عمل ابن جبير اتجاهًا من اتجاهات التحديد التي ظهرت من هذا العصر، وأول من سبع السبعة أبو بكر بن مجاهد١، وتابعه على ذلك من أتى بعده.

وشاع أمر القراء السبعة، والقراءات السبع.

وهذا التحديد أمر أكده العلماء.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: "لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي -ﷺ- أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد"٢.

وهنا أمور لا بد من مناقشتها:

ماذا يعني التزام ابن مجاهد بالسبعة؟

هل هذا التحديد يعني إهدار من سواهم؟

ما القيمة العلمية لعمل ابن مجاهد؟

أما التحديد بالسبعة فيمكن أن نجيب عنه بما يأتي:

١- أن عثمان -رضي الله عنه- كتب سبعة مصاحف، ووجه بها إلى الأمصار، فجعل عدد القراء على عدد المصاحف.

٢- أنه جعل عددهم على عدد الحروف التي نزل بها القرآن وهي سبعة، على أنه لو جعل عددهم أكثر أو أقل لم يمنع ذلك؛ لأن عدد الرواةمدخل في علوم القراءات (ص: ١٥١)

الموثوق بهم أكثر من أن يحصى١.

فهدف ابن مجاهد مجرد الموافقة في العدد "لا لاعتقاده واعتاقد غيره من العلماء أن القراءات السبع هي الحروف السبعة، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم"٢.

هذه هي الأسباب وراء التحديد بالسبعة.

ولا يعني إهدار من سواهم.

وما دام قد تبين لنا حكمة التحديد بالسبعة عند ابن مجاهد ومن تابعه فقد اتضح لنا بناء على هذا أنه لا يعني عدم توثيق من سواهم، وذلك لأمور.

١- لم تترك القراءة بقراءة غيرهم، أو اختيار من أتى بعدهم إلى الآن مثل قراءة يعقوب الحضرمي٣ وعاصم الجحدري٤، واختيار أبي حاتم٥ وأبي عبيد٦.

٢- اختلاف وجهات النظر في السبعة زيادة ونقصانًا، يقولمدخل في علوم القراءات (ص: ١٥٢)

مكي: "والكسائي إنما ألحق بالسبعة بالأمس في أيام المأمون وغيره، وكان السابع يعقوب الحضرمي فأثبت ابن مجاهد في سنة ثلاثمائة أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب١، وتم ذلك في عصر المأمون.

وفي كلام ابن تيمية الذي نقله عنه صاحب النشر جاء فيه قوله. ولهذا قال بعض من قال من أئمة القراء: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين٢.

كما نقل صاحب النشر عن مكي: وقد ذكر الناس من الأئمة في كتبهم أكثر من سببين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدرًا من هؤلاء السبعة، على أنه قد ترك جماعة من العلماء في كتبهم في القراءات ذكر بعض هؤلاء السبعة" ثم ذكر مكي أمثلة لذلك، فذكر أبو حاتم الذي ترك ذكر السبعة، وكذلك زاد الطبري في كتاب القرءات له على هؤلاء نحو خمسة عشر رجلًا٣.

٣- مما أجمع٤ عليه علماء الإسلام والأئمة المتبعون للسلف أنه لا يتعين القراءة بهذه القراءات في جميع أمصار المسلمين، فمن ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة، أو قراءة يعقوب الحضرمي، ونحوهم كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتد بهم، والمعدودين من أهل الإجماع والخلاف. مدخل في علوم القراءات (ص: ١٥٣)

فمتى توافر في القراءة شروط القبول قرئ بها ولو كانت لغير السبعة الذين ذكرهم ابن مجاهد.

القيمة العلمية لعمل ابن مجاهد:

لكن هذا العمل الذي عمله ابن مجاهد له قيمة علمية كبيرة.

هو أنه وضع أمام الجماهير المسلمة أنماطًا محددة من القراءات معتدًا بها، دفعًا لما يترتب على اختلاف القراءات الكثيرة من نوع من الفوضى لدى غير الواعين بأبعاد هذا العلم فقد سن منهج التحديد، وهو نافع بلا ريب.

وجاء بعده من ذكر القراءات العشر وقرائها، وأضاف إلى السبعة أبا جعفر المدني، وأبا يعقوب البصري، وخلفًا العاشر البغدادي.

ويبدو لنا من خلال النصوص السابقة أن العلماء الذين جاءوا بعد ابن مجاهد ارتضوا عمله، ووافقوا عليه وتلقوه بالقبول، وقد أسلفنا قول من قال: لولا ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب.

وثمرة صنيع ابن مجاهد باقية إلى عصرنا الحاضر فيما نراه من الدقة والانضباط١، واجتماع العالم الإسلامي على الشاطبية والتيسير، مع علمنا بقيمة القراءات الأخرى التي استوفت شروط القبول.